حِصارُ الضّاد

الأستاذ الدكتور /عوض بن حمد القوزي

لم يسجل التاريخ انتشاراً لغوياً كانتشار العربية، فقد كان انتشارها سهلاً، و انقادت إليها النفوس طواعية، ولم يكن أهلها يحملون هموم انتشارها بقدر ما كان يهمهم نشر الإسلام و تعاليمه، ولأن الله شرفها بأن تكون وعاء لكتابه، و لساناً لرسولهﷺ ، كانت الرعاية الربانية أقوى الأسباب لانتشارها ، و كان لنظامها اللغوي سحر في النفوس و لتراثها وقع في الأسماع و القلوب.

لقد كان جل المسلمين الأوائل لا يحسن القراءة و الكتابة، و لكن الله شرح صدورهم لحفظ كتابه، فشرَّقوا في المعمورة و غرَّبوا، و أقبل المسلمون يتعلمون لغة القرآن العظيم، ليتعبدوا الله بها، إدراكاً منهم بأن أجر من يقرأ القرآن و يعلم معناه أعظم من أجر من يقرأه ولا يعلم ما يقول .

و صاحب الرغبة في معرفة القرآن لفظاً و معنى، الرغبة في التعرف على سر عظمة هذه اللغة التي نزل بها الكتاب المعجز، فكانت آية للعالمين، و عن طريق القرآن ثم السنة النبوية المطهرة بعده، لم يلبث أن تجلى للشعوب الإسلامية غنى اللغة العربية في الموسيقى اللفظية، و الصور البلاغية ، و القدرة على التعايش مع اللغات الأخرى عن طريق التعريب القائم على الاقتراض اللغوي، فاتخذها العلماء والأدباء

و الشعراء في تلك البلاد البعيدة لغة يدونون بها معارفهم، و يمارسون عن طريقها أمور حياتهم الثقافية، ولم يكن في ذلك حساسية أو شعور بأن العربية غريبة عليهم، أو أنها مفروضة على شعوبهم،

أو أن تلك الصفوة كانت مدفوعة إلى حتفها دفعاً، لم يساورهم شك في أن "العربية"لغة الفن و الفكر و الأدب و العلوم، حتى إن بعضهم كان يتكلم في التفسير تارة بالعربية للطلاب الذين يجيدون العربية ثم يلتفت إلى الآخرين فيحدثهم بلسانهم. لا فرق بين اللغتين عنده، ولا تنافر أو تنافس بين أصحابها إلا في الخير.

منذ القرن التاسع عشر و اللغة الإنجليزية أخذت تغزو دول العالم بسبب السيطرة الاستعمارية، و أصبحت لغة الدواوين و العلم في كثير من الدول التي دخلت تحت السيطرة البريطانية، إلا أنّ فرقاً بين انتشار هذه و انتشار العربية، فاللغة العربية إبان الفتح الإسلامي ، كانت تتسور على الناس بيوتهم في سهولة و يسر ، ودون دفع أو قسر، و كان الانجذاب إليها قوياً، وما شعر العجم في الشرق أو في الغرب أنها لغة غزو، أو كانت معادية للغاتهم، أو أنها تحمل نذر القضاء على هويتهم، في الوقت الذي تحس شعوب "الكمونوليث"بأنها مدفوعة إلى اللغة الإنجليزية دفعاً، حتى إن ثقافات الشعوب و تراثها كان عليهما التلون بالصبغة الإنجليزية ، و هذا فرق–و أي فرق–أن تهوى الشيء فترتبط به، و بين أن

يفرض عليك فرضاً تحس منه العداء لقوميتك و هويتك، و السعي جهاراً لمسح شخصيتك، و إذابتها في محيط المجهول الذي لا يرى إلا مصلحته و ثقافته، ولا يحترم تراث الشعوب ولا حضاراتها.

إن الأمثلة على نجاح انتشار العربية في البلاد المفتوحة لا تزال شاخصة، فالحضارة المادية و الفكرية اللتين أقامهما العرب في ثمانية قرون بالأندلس، أحد هذه الشواهد وما سطره أدباء فارس و علماء ما بين النهرين وما وراءهما ، شاهد آخر على اعتزاز تلك البلاد بالعربية و ثقافتها ، إلا أن العداء ظهر عندما ضعفت شوكة المسلمين، فأخذت تلك البلاد تنسلخ شيئاً فشيئاً عن جسد الأمة العربية، و أردفت الغزوات المتكررة من التتار و الصليبيين بثقلها على الأمة الإسلامية، ثم تبعها في العصر الحديث المدُّ الاستعماري الذي توزع التركة العثمانية، و فرق الشعوب العربية ، و عزل بعضها عن بعض في صورة حدود إقليمية، هدفها تقزم العملاق العربي، و تفتيت جهوده و نخر قواه، وأول ما بذر من بذور الفرقة فكرة القوميات ثم إحياء اللغات الإقليمية، لبناء شخصيات متنافرة ، موهماً شعوبها بأن المستقبل الناصع الذي ينتظرها هو في العودة إلى لغاتها الخاصة ، و لهجاتها المحلية،وأن الإعراض عن الفصحى سيتيح لهم حرية الانطلاق في الفكر و العلوم و الإبداع،و من جانب آخر شجعهم على التماس لغته، و اتخاذها لغة الدولة و التعلم، ليقضي على العربية قضاء تاماً، إن هو نجح في مهاجمتها من الداخل و الخارج.

و لقد كان للوضع العربي القائم دور في تحقيق جزء كبير من هذا الهدف، فتّفرق الأمة و ضعف الآصرة بين الشعوب، و الشعور بالانهزام الداخلي، و الهيمنة الاستعمارية المباشرة و غير المباشرة عليها، كل ذلك انعكس على اللغة العربية، و بدلاً من أن تزدهر شعوبها و أممها، أصبحت تشكو مضايقة القريب قبل البعيد و الصديق و العدو.

ففي تقرير من منظمة اليونيسكو يرى أن اللغة العربية هي واحدة من اللغات التي سوف تتراجع في المستقبل، و أُرجع السبب إلى أنّه منذ بداية القرن العشرين و البلاد العربية تعاني من أزمة في الهوية، نتيجة للمتغيرات التي طرأت في التركيبة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافة العربية، و أشار التقرير إلى التحديات التي تواجه العربية ، و أُرجع تراجع العربية الفصحى إلى عدم وجود آليات فعّالة لنشرها و دعمها ، و دعا في النهاية إلى قيام مشروع لإنقاذ اللغة العربية.

إنّ قضية إنقاذ اللغة العربية تنحصر في صدق النوايا و اتحاد الكلمة و قرار السلطة العربية، و عدم الوقوف عند البحوث و التوصيات، فما لم تتنّبه حكومات المنطقة إلى ضرورة السماع لما يصدر عن مؤسساتنا الثقافية ممثلة في مجامع اللغة العربية و جامعاتنا المنتشرة في الشرق الغرب، فضلاً عن الجمعيات التي تسيِّرها جهود المخلصين من أبناء هذه الأمة، ما لم تع الحكومات مسؤوليتها و تدعم التوصيات البنّاءة التي تصدر عن الغُير من أبناء هذه الأمة، و إلا فإن الصوت سيبّح، و قد ينقطع في يوم من الأيّام.

إنّ اللغة العربية الفصحى اليوم تواجه عدواً لدوداً قوياً ، لا يرى إلا أحادية لغوية مهيمنة، و هي لغته، في الوقت الذي يرضيه التعدد اللغوي الذي تضيع معه الحقوق اللغوية لتعيش الفصحى في قلق في حال فقدان الأمن اللغوي، فهل تكون لدينا القناعة بأن حياة اللغات مرهونة بحمايتها ؟ و أن المجتمعات المدنية مسؤولة عن حماية لغاتها ؟ و أن المساس باللغة الوطنية جناية لا تقل في خطرها عن باقي الجنايات ؟ كما أن عزة الأمة في عزة لغتها ؟

فكم عزَّ اَقْوَامٌ بِعِزِّ لُغَاتِ

لقد كان للأمية التي منيت بها الشعوب العربية إبان الفترة العثمانية دور في ضعف اللغة العربية الفصحى ، حيث انحسرت المراكز الثقافية و كادت تنعدم إلا من بعض العواصم التي احتفظت ببعض المراكز و المعاهد، ففي القرن الثامن عشر، اقتصرت المعارف الرسمية للعلماء في الأزهر و الزيتونة ،

و القرويين و قليل من بعض الحواضر العربية، اقتصرت على علوم الفقه و التفسير و الحديث و النحو و قليل من اشتغل بعلوم الحساب و الجبر و المقالة و الهيئة و الهندسة و التوقيت و الفلك- بحسب رواية الجبرتي -، إلا أن هذه القلة المهتمة بهذه العلوم لم تكن ضمن المراكز التعليمية ، التي قصرت تعليمها بالعربية الفصحى على العلوم الدينية، و هذا الاهتمام الديني بهذه العلوم جعل من الطبيعي أن تقتصر العناية باللغة الفصحى على المسلمين، و أبعد من سواهم من أبناء الديانات الأخرى عن تلقي الفصحى و من ثم استخدامها. و هذا بدوره أتاح للعاميات الفرصة للانتشار بين العرب مسلميهم

و غيرهم، فأتيح بعد ذلك ابتعادٌ أكثر عن اللغة العربية الفصحى عندما اضطر غير المسلمين من تقديم القداس بغير اللغة العربية، فالقبطية عند أقباط مصر، و السريانية عند أكثر المسيحيين في الشام والعراق و العبرية عند اليهود، علماً بأن رجال الدين عند هؤلاء جميعاً يكتبون بالعربية، إلا أن استخدامهم لها لم يكن ينشد الفصاحة العربية القرآنية، و عربيتهم أقرب إلى العامية المحلية منها إلى الفصحى المرتبطة بمعاهد العلم الإسلامية. [انظر: حجازي، محمود فهمي، اللغة العربية في العصر الحديث،قضايا ومشكلات، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٤-١٥].

هذا الانحسار كان شديد التأثير على اللغة العربية الفصحى، حيث لم تعد تلك اللغة التي ينشدها الجميع، و ضعفت الرابطة النسبية بين أفراد المجتمع العربي، الأمر الذي أتاح للسهام أن توجه للغة من كل جانب، فهناك الازدواج اللغوي الذي ران على كثير من البلاد العربية إبان الحكم العثماني، حيث كانت التركية إلى جانب العربية لغة الدواوين الحكومية، فضلاً عن بزوغ الصحافة منذ أيام حكم محمد علي في مصر (سنة ١٨٢٨م) ، تلتها تونس سنة (١٨٦٠م)، فبغداد سنة (١٨٦٩م)،

حيث كانت الوقائع الرسمية تكتب بالتركية، ثم تترجم موضوعاتها إلى العربية، و ظلت اللغتان معاً في الصحف الصادرة في تلك الحقبة إلى أن حل الاستعمار الإنجليزي محل الحكم العثماني (١٨٨١م) في

مصر ،و تونس ، و من قبل ذلك في الجزائر سنة (١٨٣٠م) ، و بدخول البلاد العربية تحت الحكم الاستعماري الجديد ظهرت مشكلة أخرى في مواجهة اللغة العربية الفصحى، ألا و هي تشجيع المستعمر للهجات المحلية التي استسهلها عندما عجز عن فهم اللغة الفصحى، و عندما وجد أنها عنصر وحدة قوي لجمع شتات العرب في المشرق و المغرب، فأراد أن يوهنها ، و أي وهن يصيب الأمة أقوى من اللغة، فراحوا يروجون للعامية و يهاجمون الفصحى، و كان المهندس البريطاني "ويليم ولكوكس" قد تفرغ للهجوم على العربية الفصحى ، و دعا لهجر الكتابة بها و النكوص إلى العامية لتكون لغة الكتابة، و بلغت به الجرأة في الهجوم أن حاضر تحت عنوان استفزازي يقول: " لِمَ لَمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟ زاعماً أن ذلك يرجع إلى أنهم يؤلفون باللغة العربية الفصحى

و أنهم لو كتبوا بالعامية لأعان ذلك على إيجاد ملكة الابتكار و تنميتها ، و وصف الفصحى بأنها صخرة ثقيلة يعاني منها الكتاب ، و أن عليهم التخلص منها . [عمر ، أحمد مختار : من قضايا اللغة و النحو ، عالم الكتب(١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ص ١٢٦]، و من قبل "ولكوكس"كان "سبيتا الألماني" (w.spitta) قد نال من العربية الفصحى في كتابه الذي ألفه في قواعدها و نشره سنة (١٨٨٠م) و حسَّن للناس استخدام العامية المصرية لتكون لغة الأدب و الثقافة، ومثل ذلك دعا القاضي(ويلمور) إلى الكتابة بالعامية، وأن تكون لغة مصر الرسمية مع كتابتها بالحروف اللاتينية ثم بعد ذلك توالت الصيحات هنا و هناك معلنة صعوبة العربية الفصحى، داعية إلى نبذها ، و إحلال العامية مكانها ، لتخلص العامية من نظام الإعراب الذي تفرضه اللغة العربية الفصحى، و بدأ التشكي من النحو ووعورته، و اقترحت وسائل للتخفيف من مشكلة الإعراب بتسكين أو آخر الكلم، و اقترحت وسائل عديدة لزعزعة العربية الفصحى، و إضعاف مكانتها في نفوس العرب، ووجدت هذه الصيحات من يستجيب لها من أبناء العربية ، حتى من ذوي الأقلام المؤثرة ، أمثال سلامة موسى

(١٩٢٦م) و أنيس فريحه الذي تمنى في عام ١٩٥٥م "أن يرى عاملاً عسكرياً سياسياً يفرض اللغة العامية على العرب". [المصدر السابق ، ص ١٣٤].

فإذا ما قارنا هذا القول بشهادة الأستاذ (هاملتون جب) "المستشرق المعروف"و هو يتكلم عن قواعد النحو في العربية كلام الخبير بها ، حيث مساعدته على إنشاء بعض قواعدها وتطبيقها معلوم مشهود، يقول (جب): "إن اللغة العربية ميزة ظاهرة، هي منطقية في تعبيرها أكثر من أية لغة أخرى" وهو قول لا يحمله عليه فخر بعصبية قومية، و إنما يصدر فيه عن دراية و معرفة موضوعية بأساليب التعبير في العربية و في غيرها من اللغات القديمة و الحديثة.[انظر: هاملتون جب، تعليق على محاضرة الدكتور : إبراهيم مدكور: "منطق أرسطو و النحو العربي "، ألقيت في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الدورة ١٥، عام ١٩٤٩م، محاضر جلسات الدورة الخامسة عشر، ص ٣٧١، نقلاً عن : البسام ، عبد العزيز: العربية الفصيحة " لغة التعليم في الوطن العربي " بحث ضمن إصدار اللغة العربية و الوعي القومي ،

إصدار المجمع العلمي العراقي بالاشتراك مع معهد البحوث و الدراسات العربية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٤م، ص ٥٦].

و لم تكن الدعوة إلى العامية مقصودة لذاتها، بل القصد هو تفكيك الوحدة اللغوية العربية، ليدب الوهن في صلب الأمة، فيسهل انقيادها إلى اللغات الأجنبية الوافدة و استطاعت بريطانيا أن تفرض اللغة الإنجليزية في المدارس المصرية سنة (١٨٨٩م) لتصبح اللغة العربية مجرد مادة دراسية في مناهج التعليم، لكن الله قيض لهذه اللغة من يدافع عنها و يقف بصلابة في وجه التغريب، و التجهيل أمثال حسين المرصفي، و عبد الله النديم، و جرجي زيدان و انبعثت المقاومة من أجل الفصحى في الأقطار العربية كلها، حيث قامت المدارس في بلاد الشام و العراق، آخذة على عاتقها الاحتفاظ باللغة العربية الفصحى ، و ظهرت حركة لغوية نشطة في لبنان، كان على رأسها إبراهيم اليازجي (١٨٤٧-١٩٠٦م) مؤلف "لغة الجرائد" ، و بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٧م) مؤلف "محيط المحيط" و قامت جمعيات تنادي بجعل اللغة العربية اللغة الرسمية في البلاد "العربية" كان على رأسها : جمعية النهضة العربية (١٩٠٧م) ، و المنتدى الأدبي (١٩٠٩م) و جمعية العربية الفتاة (١٩١١م) ، وجمعية العهد (١٩١٣م) و جمعيات أخرى في دمشق و بغداد و استانبول.

أما في المغرب العربي فقد نجح الفرنسيون في إقصاء اللغة العربية عن التداول في الجزائر حيث مكنوا للهجات السبيل للتداول اليومي، كما مكنوا للفرنسية استقرارها في الدواوين و التعامل الرسمي، جنباً إلى جنب مع اللهجات البربرية المنتشرة . و لم يكن حال تونس و المغرب بأفضل من حال الجزائر ، لأن السياسة الفرنسية واحدة و إن اختلفت النتائج باختلاف عوامل المقاومة اللغوية
و الحضارية [انظر : حجازي ، محمود فهمي : اللغة العربية في العصر الحديث ، ص ٢٠-٢٦] .

و بين تشجيع العاميات، و الدفع إلى اللغات الأجنبية، برزت مشكلة الكتابة العربية، واستغلها المرجفون في زيادة حجم المشكلة و أغروا الشعوب العربية بإمكان استخدام الحرف اللاتيني في الكتابة و قد دعي العرب و الترك و الفرس جميعاً إلى ترك الحروف العربية، و الكتابة بالحروف اللاتينية بدلاً منها ، و نفذ هذا الطلب في بعض الشعوب الآسيوية غير العربية ...[انظر محمود حجازي: اتجاهات المستشرقين في دراسة الحياة اللغوية في العالم العربي الحديث ، نقلاً عن المؤلف نفسه في كتاب : اللغة العربية في العصر الحديث ص ٨٧] .

لكن هذا المدخل قد رفض من الشعوب العربية كما رفض مشروع الكتابة بالعامية، و لكن الغير من أبناء الأمة العربية أحسُّوا بالصعوبة في ظل تقدم الطباعة و استحداث التقنيات الطباعية ، و سهولة تناولها بالحرف الأجنبي في حين صعوبتها مع الحرف العربي لما يعتريه من تنوع في الشكل وفي الضبط.
و أخذت جهود التيسير سبيلها لتلحق أمة العرب في الطباعة بالأمم الأخرى ، مع الإصرار على مراعاة الأساس اللغوي لتيسير العربية الفصحى، و قامت محاولات مبكرة في مجال تيسير الكتابة العربية

منذ ١٨٨٥م . و إذا علمنا أن تيسير الكتابة العربية ليس مقصوراً على الدول العربية وحدها ، لأن الحرف العربي وسيلة التدوين – أيضاً– للغات كثيرة في العالم الإسلامي ، كالباكستان و بنقلادش ، و بلاد فارس و بعض الدول الإسلامية في جنوب روسيا، و تركيا قبل أتاتورك و من أجل هذا فإن محاولات تيسير الكتابة العربية إنما كانت تهدف إلى الإفادة الرشيدة من إمكانات هذه الكتابة و جعلها وافية بالمتطلبات اللغوية في تدوين هذه اللغات على نحو من السرعة و الدقة و الفاعلية . و تحقق في الوقت نفسه ما ننشده من الإفادة القصوى من الإمكانات التكنولوجية ، مع الحفاظ على الخط العربي رمزاً للتواصل الحضاري للأمة الإسلامية [انظر المصدر السابق ، ص ١٠٢] .

و من هنا كانت اللغة العربية في البلاد العربية محاصرة في مهدها و في بيئتها ، فالعدو يشجع لغته على التغلغل في البيئة العربية بوسائل عديدة أخفها تيسير البعثات العربية إلى البلاد الغربية لتعلم تلك اللغات و الثقافات ، ثم محاولة نشرها بين أبناء جلدتهم ، و هذا المطلب لم تكن نتائجه مرضية و لا محققة للأهداف ، ثم تكثيف البعثات الإفرنجية إلى الدول العربية التي وقعت تحت السيطرة الغربية ، ناهيك عن المحاولات الساخرة التي بذلتها كل من فرنسا في دول المغرب العربي ، و بريطانيا في مصر و الشام ، بحيث تكون اللغة الرسمية في البلاد هي لغة الغزاة . أما الجهة القوية التي كانت العربية الفصحى تواجهها ، فهي الجبهة الداخلية ، و لا تزال الواجهة مستمرة معها حتى اليوم ، بالرغم من كثرة الجامعات و أعداد الجامعيين ، ووجود مجامع اللغة العربية و المعاهد و الجمعيات التي لم تألُ جهداً في محاولات إنقاذ اللغة العربية الفصحى من كل سوء ، فالعاميات سيطرت على كثير من وسائل الإعلام _ لا سيما المرئي منها _ و أخذت أشكالاً متفاوتة من اهتمام أبنائها أنفسهم ، فترى بعض العوام يمجد اللهجات و يراها حاملة تراثه و تاريخ أمته ، فأحبها و لربما يعتز بها ، و يقدمها على الفصحى التي قد تعيقه في نقل أفكاره ، و تصوير مشاعره ، و ما علم أن انتشار العامية محدود ببيئة ضيقة ، و أن صدى صوته لن يتجاوز بضعة أميال حتى لا يكاد يسمع عند غيره ، فإن سمع فلن يفهم ، و عندئذ تحصل القطيعة الاجتماعية نظراً للقطيعة اللغوية .

إنّ الذي يوحد العرب شرقاً و غرباً و شمالاً و جنوباً إنما هو الفصحى التي لا يستعصى فهمها على كل عربي ، فبها نقرأ كتاب الله ، و سنة رسوله ، و بها سطر تاريخنا عبر السنين ، و هي قادرة على توحيد أمتنا إن استطعنا حمايتها ، و إنقاذها من هذا الحصار الذي نحن نشارك في ضربه عليها .

إنّ تأثير الإعلام في النفوس كبير ، و إن سيطرة العاميات فيه قوية جداً ، و قد عقدت مؤتمرات و ندوات في كثير من البلاد العربية بغية التنبيه إلى خطورة الإعلام على اللغة ، إلا أنّه للأسف لم تصاحب تلك التوصيات و القرارات إرادة رسمية تلزم مستخدميه بالفصحى . و حبذا لو فرضت عقوبات على المخالفين ، إذن لارتدعوا عن التلويث اللغوي الذي يفرزونه ، ثم إن مما يدخل في الإعلام و تأثيره الإعلانات التي تملأ الشوارع و الميادين و الصحف و المجلات ، فلو روعيت فيها سلامة اللغة و

صحتها لارتدع الجهالة عن ذلك الغثاء في الإعلانات ، و لأسهموا في تصحيح الذوق اللغوي ، و تنقية العربية من هذا التلوث اللغوي الذي أرجو ألا يكون مقصوداً .

و إذا أمعنا النظر وجدنا اللغة العربية _ حقاً _ في مأزق و في حصار يمثل الوضع الداخلي لمستعملي اللغة العربية أقوى جبهاته ، حيث تنبعث السهام من الداخل ضد الفصحى من كل اتجاه ففضلاً عن الغثاء اللهجي الذي تبثه وسائل الإعلام ، و قد تسميه أحياناً "الفلكلور" الشعبي – تحسيناً له في السمع– ، و قد تحسنه أحياناً بتسميته " الموروث الشعبي " لاستهواء العامة ، و إيهامهم أن ما يمارسونه إنما هو إرث الأبناء من الآباء ، و أن في إحيائه وفاء يفرضه حق الأبوة و المواطنة ، و على امتداد رقعة البلاد العربية نرى الاهتمام بهذا الموروث الذي فاق ما تبذله تلك الشعوب في البحث العلمي و اللغوي اللذين من شأنهما الارتقاء بلغة الأمة التي فيها وحدتهم من المحيط إلى الخليج .

و كما أسهمت الجامعات العربية في الارتقاء بالمستوى الثقافي لشباب الأمة العربية ، و أحدثت نوعاً من الرابطة النسبية بين الشعوب عن طريق تبادل البعثات و انتشار أعضاء هيئة التدريس شرقاً وغرباً ، و كسر حاجز العزلة بين الشعوب العربية عن طريق اللقاءات العلمية ، و تبادل الإنتاج الثقافي بين الأكاديميين و مراكز البحث العلمي إلى غير ذلك من الإيجابيات المعرفية التي قربت الهوة
و قضت على العزلة التي كانت تعاني منها بعض شعوب منطقتنا العربية . و بالرغم من ذلك كله ، فإنّ جامعاتنا العربية _ باستثناء الجامعات السورية _ لم تفلح في تعريب علومها كلها .

لقد قيل صراحة في كثير من أروقة الجامعات العربية : إنّ اللغة العربية لا تصلح الآن للعلوم الحديثة من طب و هندسة و رياضيات و كيمياء و طبيعة و نبات ، لقيام عدد من العوائق يحول دون استخدامها فيها . فإذا نظرنا إلى تلك العوائق وجدناها تتركز حول صعوبة النحو و الصرف العربيين، الأمر الذي يجعل دارس العربية ينتهي من مراحل التعليم العام و هو لا يحسن التحدث أو الكتابة بالعربية السليمة ، و ما ذلك إلا لانشغال المدرس بتلقين الدارس قواعد اللغة و إشغاله بحفظها دون توظيف ذلك في السعي به نحو تحصيل القدرة على التعبير الشفوي السليم ، أو القدرة على كتابة أفكاره بلغة سليمة ، بل ربما ينصرف بعض معلمي العربية إلى تلقين طلابهم بعض قواعد العربية التي لا تستخدم إلا نادراً ، و قد يلتمس الشاذ من الآراء فيطرحه أمام طلابه و يلزمهم بمعرفته في الوقت الذي عفا الزمان على استخدامه ، و أصبح لا يفيدهم في شيء .

و الواقع فإن دراسات و قرارات مجمعية علمية قد صدرت في معالجة هذه المسألة تجعلنا نبادر القول بأن هذه العوائق لا تسوغ للجامعات الفرار من العربية و الاعتصام باللغات الأجنبية لأننا " إذا فرضنا على الطالب أن يتلقى علومه بتلك اللغة ، فرضنا عليه أن يواجه مشقتين : مشقة تحصيل المادة العلمية ووعيها ، و مشقة فهم اللغة التي تلقى بها هذه المادة . أمّا إذا فرضنا عليه الدراسة باللغة العربية فإننا نعفيه من إحدى المشقتين ، و نوفر له جهداً يمكن أن يستخدمه في التحصيل العلمي وحده "

[انظر: نصار حسين: دراسات لغوية، دار الرائد العربي، بيروت (١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ص١٧]

" إن الدعوة لاستعمال اللغات غير العربية في دراسة العلوم لم تنبعث من عدم إمكان تيسير اللغة العربية إلى العلوم الجديدة ، و لا هي ردّ فعل على موقف متين في الدفاع عن الفصحى بمفهومه الضيق لها ، إنما هي منبعثة من دافع نفسي أعمق ، وهو مدى ضعف إدراكهم لكيانهم العربي ..... إن موقفهم لا ينبعث من اعتقادهم بعجز اللغة العربية بقدر ما هو من إعجاب يصل حدّ الاستسلام للحضارة الغربية " [انظر : العلي ، صالح أحمد : أسلوب الكتابة و الهوية الثقافية القومية ، بحث منشور ضمن إصدار : " اللغة العربية و الوعي القومي " المجمع العلمي العراقي بالاشتراك مع معهد البحوث و الدراسات العربية ، الطبعة الأولى بيروت (١٩٨٤م ، ص ١٨٧)] .

و لقد سطر أحد علماء الكيمياء العرب تجربته في تدريس مادة الكيمياء لطلابه بالعربية حين قُسِرَ على تدريسهم بها ، إذ لحظ أنه سُهل له طريق التناول و المحاضرة بالعربية بعد ممارسة ذلك في أسابيع، ثم قارن بين محصلة نتائج التدريس بالعربية في المدة القصيرة، و نتائجها و هو يدرس بلغة أجنبية سنوات طوالاً ، فرجحت كفة العربية على غيرها من حيث " ضخامة التحصيل، وحسن استيعاب الطلاب " [انظر : الجامعات العربية ، و المجتمع العربي المعاصر، ص ٤٠٦ ، نقلاً عن نصار حسين، مرجع سابق ، ص ١٧-١٨] .

و أضيف إلى هذه التجربة تجربة مشاهدة على أرض الواقع في كلية الطب بجامعة الملك سعود بالرياض ، حيث صادف أن لقيت أحد طلابها و هو على أبواب التخرّج، و يستعد لأداء امتحان في بعض المواد الدراسية، فاطلعت على كتابه المطبوع باللغة الإنجليزية ، فإذا هو مترجم إلى العربية بطريقة بدائية كما يفعل الأطفال في التعليم العام ، و علمت منه كيف يعاني هو و زملاؤه من صعوبة اللغة ، و كيف أن مستواهم المعرفي يتأثر بضعفهم اللغوي .

إن إصرار الجامعات العربية على تدريس بعض العلوم بغير العربية لا مبرر له ، فالطبيب العربي مثلاً يتحدث بالعربية و المريض في الغالب لا يتحدث غير العربية ، و أستاذه عربي ، و بين الطبيب و أستاذه كتاب أجنبي و لغة أجنبية . و مادام الأمر كذلك فلم نقصر أنفسنا و نصرف جهداً كبيراً في التحصيل باللغات الأجنبية ، و نحن نعلم أننا لا نستفيد منها في علاج المريض ؟

إن مما يؤسف له أن ذاكرة الشعوب العربية ضعيفة، و أن القرارات التي تبذل فيها الجهود تنسى بمجرد أن يجف مدادها ، فلا نستفيد منها في شيء ، ففي هذا المجال هناك توصية من اليونسكو بجعل اللغة القومية لغة التعليم في مراحله كلها ، و هذا لا يخص العرب وحدهم بل يعني شعوب الأرض قاطبة ، مما دعا واضعي قوانين الجامعات العربية على النص على أن تكون اللغة العربية لغة للتعليم فيها، إلا أن هذا النص مؤجل التطبيق في بعض الكليات .

و ليس معنى هذا إهمال اللغات الأجنبية ، بل لابد من التأكيد على ضرورتها و العناية بها في التعليم العام و الجامعي ، إذ لابدّ لنا من الانفتاح على العالم إلى أقصى درجات الانفتاح ، و هذا غير ممكن إذا لم نحسن بعض لغات العالم الرئيسة ليتاح لنا استمرار الاتصال بالتطور العلمي العالمي .

و هذا ما يؤكده أحد الباحثين بقوله : " إن مضار التعليم بلغة أجنبية في مؤسسات التعليم في مستوى ينافس العربية، و يستأثر بنصيب وافر من فرص التعلّم لا تقتصر على حرمان المتعلمين من الاعتماد على لغتهم القومية أداة فكرية أيسر في التعلم ، ووسيلة اجتماعية و قومية لترسيخ الخصائص القومية و أسس الوحدة الفكرية، وإنما تشمل أيضاً أخطار تشربهم لقيم ثقافية أجنبية خلال مرحلة مهمة من نشأتهم ، تشرباً ما أحراه أن يؤثر في ولائهم لأمتهم و مواقفهم من المشاركة في نضالها لتحقيق أهدافها، ولا يعني هذا أن اعتماد العربية لغة للتعليم يقتضي العزوف عن تعلم اللغات الأجنبية بتمامها، بل الأمر على العكس ، لابدّ من حظ منها للأغراض العلمية و الثقافية، متابعة للتبحر في المعرفة العلمية و بحوثها ، و انفتاحاً على الفكر الإنساني عامة، .. ومهما يكن فإن مواصلة سياسة التعريب، بمعناها المحدود أي اعتماد العربية لغة للتعليم في جميع مراحله، بتطبيقها في الواقع أمر على غاية من الأهمية و الخطورة ، للأغراض الفكرية و القومية على السواء "[البسام ، عبد العزيز : العربية الفصيحة لغة التعليم في الوطن العربي " بحث ضمن إصدار " اللغة العربية و الوعي القومي " ، المجمع العلمي العراقي بالاشتراك مع معهد البحوث و الدراسات العربية ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٨٤م ، ص٦٠] .

فإذا خضع أمر تعريب التعليم الجامعي في البلاد العربية للرغبات الفردية ، فسيظل تتنازعه تيارات التغريب و التعريب ، ولن يتقدم في تحقيق آمال الأمة في تحقيق الشخصية اللغوية ، و بالتالي الشخصية العربية المتميزة بهويتها الخاصة ما لم يصدر قرار سياسي على مستوى الدولة ومن ثم دول المنطقة كلها، يحدد معالم السياسة التربوية ، لاعتماد العربية الفصيحة، و يجمل أهدافها و المجالات و الوسائل الرئيسة لتحقيقها ، على أن يشفع ذلك بتشريع على حظ من التحديد و توفير الأسانيد اللازمة للتنفيذ . [انظر : المصدر السابق ، ص ٧٨] .

وبعد : فإن الاهتمام بالتعليم و تعريبه سيكون فيه الحل الأمثل و العلاج الأنفع لفك الحصار عن لغة الضاد ، ذلك الحصار الذي يمثله طغيان العاميات من الداخل و تعدد وسائلها ، كما يمثله من الخارج الانقياد للتبعية اللغوية الأجنبية ، فبالتعليم و التعليم وحده نبني حاضر اللغة و مستقبلها ، وبه وحده نحقق للأمة هويتها و شخصيتها المميزة .

وبالله التوفيق ؛؛